الباب الرابع

الوحدانيـــة

تمهيد

الوحدانية هى الهدف الأساسى للإسلام ولكل الأديان المنزلة، فمادام الإنسان أصبح موحدًا فإن الباب إلى السمو سيصبح مفتوحا أمامه. والمراد بالسمو هنا الحقيقى الذى يليق بالإنسان، وليس السمو المادى الذى يتطلع إليه من لم يفهم رسالته فى الحياة.

إن الإنسان إذا ما أصبح موحدا فإنه يكون بذلك قد ابتعد عن كل الرذائل وتحلى بكل الكمالات التى تليق بالإنسان. لن يذل نفسه لغير الله، ولن يتوكل إلا على الله، ولن يخاف إلا من الله، لا تحزنه المصيبة ولا تبطره النعمة.

وقد تقدم لنا أنه لا يوجد توحيد خالص فى غير المسلمين؛ حيث إن الأديان الإلهية قد بدلها أصحابها، ومادام الله سبحانه قد أنعم على المسلمين بهذه النعمة فإن واجبهم أصبح هو إنقاذ البشرية مما تردت فيه من الشرك.

والقرآن الكريم قد هاجم الشرك فى كل زاوية من زواياه، وآتت المعركة ضد الشرك ثمارها والحمد لله.

وعلى هدى القرآن الكريم سار المسلمون، حيث أجمعوا على التوحيد ولكنهم اختلفوا فى المنهج.

وفى هذا الباب سنعرض لمنهج القرآن الكريم ثم المحدثين من المفكرين ثم المتكلمين ثم الفلاسفة ثم للوحدانية فى التوراة والإنجيل.

والسبب فى هذا الترتيب أن منهج القرآن يقدم طبعًا. ثم إن المحدثين أشد ارتباطا بما جاء فى القرآن الكريم حتى ولو لم يطلعوا عليه، كما سيتبين ولذلك جعل رأى المحدثين مع القرآن الكريم فى فصل واحد.

بعد ذلك يكون بيان وجهه نظر المتكلمين باعتبارهم أسبق فى الزمن من الفلاسفة. وباعتبارهم يدافعون عن الدين، ويرجعون فى عقيدتهم إليه حتى ولو لم يحالفهم التوفيق فى بعض الأحيان.

ثم الفلاسفة بعد ذلك ـ معهم فى فصل واحد ـ لأن كلا من الفريقين يعتمد على العقل. ولكن مع الفرق فالمتكلمون يجعلون للعقل حدودًا لايتعداها مع الشرع أما الفلاسفة فالأساس عندهم هو العقل وعقلهم هم.

ثم الفصل الأخير عن الوحدانية فى التوارة والإنجيل ليتبين المسيحيون واليهود أن المسلمين عندما ناقشوا كانوا يدافعون عن قضية أجمعت عليها الديانات السماوية.

والتوراة والإنجيل برغم أنهما بدلا لازالا ـ مع ذلك ـ يشتملان على أدلة التوحيد.

الفصل الأول

فى القرآن الكريم

القرآن الكريم

دعا القرآن الكريم إلى التوحيد[١] وجعله الأساس الأول الذى يقوم عليه الإسلام.

ولكن القرآن الكريم نزل والعالم كله يكاد ينضوى تحت لواء الشرك.

ومن هنا كانت المعركة طويلة بين التوحيد والشرك.

والقرآن ينتقل فى تلك المعركة من نقطة إلى نقطة ليقضى على كل أنواع الشرك ويبدأ بالمسلمات عند الخصم عندما يتناول قضية الخلق ويبين أن الخصم يقر بأن هذا من فعل الله وحده.

فالله هو خالق السموات والأرض، وهو خالق الإنسان، وكل المخلوقات.

المشركون يقرون بهذا ولا ينكرونه.

يقول تعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ سورة لقمان آية/ ٢٥.

ويقول سبحانه:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ سورة الزخرف آية/ ٨٧.

بذلك ينتج أن قضية الخلق لا نزاع فيها وأنه لا يوجد من يدعى أن لله شريكا فى الخلق.

وما دمنا قد وصلنا إلى هنا فإن الانتقال إلى القضية الأخرى ـ وهى قضية عدم المماثلة بينه سبحانه وبين غيره ـ يصبح سهلا.

فما دام هناك خالق، وهنا مخلوق، والمخلوق لا يمكن أن يكون خالقا.

---

١١) من الواضح أن التوحيد هو عقيدة الأنبياء جميعًا فما من نبى وإلا وكانت كلمته الأولى لقومه (اعبدوا الله مالكم من إله غيره).

نقول مادام ذلك كذلك فإنه لا يمكن أن يكون هنا وجه شبه بين الخالق والمخلوق فهما لا يشتركان فى شيء ولا يتشابهان فى شيء.

ومن هنا يكون هذا الاستفهام الإنكارى الذى يحمل التوبيخ وذلك حين يقول تعالى:

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ سورة النحل آية/ ١٧.

وختامه تعالى "الآية بقوله ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ يفيد أن عدم المشابهة بين الخالق والمخلوق من الأمور البديهية التى كان يجب ألا تغيب عن أذهانكم وحتى بعد أن غطت أبصاركم غشاوة التقليد لا تحتاجون إلى كبير مشقة فى إدراك أنكم مخطئون حين أشركتم مع الله مخلوقا من مخلوقاته.

ولكن الواقع أنه قد تغلب الشرك وأصبح غير المعقول مألوفا والحق مستغربا.

فلو وجد الناس شركا لما تساءلوا ولكن لو وجدوا من يدعو إلى التوحيد لعدوا ذلك من العجائب وقالوا كما جاء فى القرآن الكريم عنهم.

﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ سورة ص آية/ ٥.

وعجبهم أسبابه كثيرة هى فى الوقت نفسه أسباب الشراك.

❖ ❖ ❖

وأسباب الشرك كثيرة وتختلف من أمة إلى أمة والمتتبع للقرآن الكريم، ولما قلناه فى الباب الخاص بالأديان يجد هذه الأسباب.

ونحن الآن نجملها فيما يأتى.

أولا: تقليد الآباء، وتقليد الآباء[1] قد سيطر حتى سد عليهم كل منافذ التفكير فلم يعد عقل يفكر ولا أعين تبصر ولا أذن تسمع، وهم إن أبصروا أو سمعوا كما يظنون، فإنما شأنهم الوقوف عند الظاهر دون النفاذ إلى ما وراءه، وهو ما يفترق فيه الإنسان عن الحيوان فكأنهم لم يسمعوا، ولم يبصروا، ولذلك وصفهم الله سبحانه بأنهم كالأنعام بل هم أضل لأن الأنعام أدركت ما فيه نفعها، أما هم فلا.

---

(١) ارجع مع هذا إلى ص ٣٥ وما بعدها من هذا البحث لمعرفة أسباب عبادة الأصنام.

ما سبب كل هذا الذى أصابهم؟

إنه تقليد الآباء ؛ جر عليهم كل أنواع البلاء ؛ من العناد وغيره وكانت النتيجة أن سد عليهم منا فذ التفكير.

ثانيًا:[١] هل الآله الواحد يمكن أن يكون موجدا لكل ما فى الكون من الموجودات على ما فيها من تناقض ظاهر ـ كما يزعمون ـ حيث فيها الخير والشر والنور والظلمة من هنا كانت القنوية القائلون بألهى الخير والشر.. إلخ.

ثالثًا:[٢] لو قلنا باله واحد فهل يمكننا أن نصل إليه مباشرة بدون وسيط وهل نشغله بهذه المسائل الحقيرة التى يمكن أن تقوم بها الآلهة الصغار.

رابعًا: بعض المعجزات التى أدهشتهم عندما قصروا نظرهم على من جرت على يديه ولم ينتقلوا إلى من أجراها على يدى واحد من خلقه وذلك كالنصارى.

خامساً: النتائج التى ستترتب على التوحيد كانت مخيفة بالنسبة لهم.

إن التوحيد هو القول بالإله الواحد، هو الله سبحانه ويتبع ذلك مباشرة أن كل ماعدا الله هو عبد له ، لا فرق بين واحد وواحد أى المساواة بين الناس.

وهذا هو الذى كان يخيف الكثير، بل كان العقبة فى سبيل تركهم عبادة الآباء إلى عبادة الله.

هذه هى بعض أسباب الشرك.

ومما زاد الأمر صعوبة أن المشركين لم يكونوا على استعداد لأن يفكروا ـ كما تقدم ـ كما لم يكونوا على استعداد أن يتركوا ما هم عليه لو تفكر وعرفوا[٣].

---

(١) هذا ما تقوله الثنوية الذين قالوا بإله للخير وإله للشر ارجع إلى ص ١٠٣ وما بعدها من هذا البحث (الأديان فى فارس)

(٢) ارجع فى ذلك إلى الدين فى أفريقيا ص ٦٧ وما بعدها وإلى عبادة الأصنام عند العرب ص ٣٥ وما بعدها من هذا البحث.

(٣) ارجع فى ذلك إلى ما تقدم وبخاصة ص٣٥ وما بعدها من هذا البحث.

ومن هنا كانوا ـ كما قال الله سبحانه عنهم ـ يتواصون بعدم ترك الآلهة.

قال تعالى :

﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ سورة ص آية/ ٦ ، وبذلك فإن التوحيد الذى هو فطرة فطر الله عليها النفوس أصبح من الأمور الغامضة التى تحتاج إلى ما يجليها.

والقرآن الكريم يأخذ بيد الناس إلى التوحيد بنوعين من الدفاع :

أحدهما عام ضد كل شرك.

والثانى خاص بنوع من الشرك.

أما النوع الأول فيتمثل فى :

(أ) إيقاظ الفطرة :

إن الناس لو رجعوا إلى الفطرة السليمة لوجدوها تنطق بالتوحيد.

وقد تقدم ـ على لسان الشهرستانى ـ أن الفطرة هى التى تنطق بوجود الصانع.

وهنا كذلك نقول ـ أخذا من القرآن الكريم ـ إن الفطرة التى لم تدنس تنطق بوحدة الصانع.

وحتى بعد أن تدنس. فإنها عندما تصدمها النازلة يزول عنها ما غشيها لترجع إلى صفائها ، فتذكر الله وحده.

وهنا نأتى بآية ذكرها الشهرستانى فى إثبات الصانع لنقول : إنها منطوق الفطرة بالتوحيد.

قال تعالى :

"**وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه**". وقد تقدم[1] أن المراد منها :

ذهب عن خواطركم كل من تدعونه فى حوادثكم إلا إياه وحده ، فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواه ، فلا تدعون لكشفه إلا إياه.

إن الفجأة أزالت العرض وأظهرت حقيقة الجوهر ، والعرض هو الشرك.

ومثل هذه الآية قوله تعالى :

---

(١) ص ٤٠٤ من هذا البحث.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ سورة يونس آية/ ٢٢.

هنا نجد شدة الخوف قد أزالت عارض الشرك وأظهرت صفاء الفطرة.

كالصدأ الذى غطى المعدن فإنه يزول عند ملاقاة النار، وما دامت الفطرة على التوحيد فإن القرآن الكريم يدعو الناس إلى تخليصها مما أصابها من أدران الشرك.

(ب) التنسيق الموجود فى الكون.

لو كان هناك مجموعة من الناس يقومون بأعمال متعددة ولكن هذه الأعمال - برغم تعددها - ترمى إلى هدف واحد.

فلو أنك رأيت هذا لأدركت على الفور أن هذه المجموعة يحكمها فكر واحد، كما لو رأيت جيشا بعضه يحمل المياه وبعضه يجلب الأسلحة وبعضه يحارب وبعضه يحمى الظهر وهكذا وكل واحد من هؤلاء يقوم بعمله تحت مظلة المجموع، فحامل الماء يسقى المحارب، والمحارب، يحمى الساقى...

إنك عندما ترى هذا الجيش هكذا تحكم بأنه تحت قيادة قائد واحد.

لأنك رأيت مجموعة كل عضو فيها يعرف طريقه ومهمته المكملة لمهمة الآخرين، فهو لا يتصادم مع الآخرين، ولا ينفصل عنهم.

وما من عضو فى مكان إلا ولو جوده فى هذا المكان حكمة إن غابت عن بعض الأفراد فهى فى فكر القائد.

أما لو رأيت مجموعة متدابرة هذا فى واد وذاك فى واد آخر، ليست هنا وحدة تجمعها لا فى السير ولا فى الهدف كل واحد منهم يعمل عملا ليس بينه وبين الآخرين رابطه تتصادم فى سيرها وتتنافر فى أهدافها.

ولا تستطيع أن تعرف حكمة فى وجود هذا هنا بالنسبة لوجود ذاك هناك.

إنك حين ترى هذه المجموعة تحكم مباشرة بأنها لا قائد لها، وإن كان لها قائد فهم قادة لا واحد.

هذه المعانى التى أخذناها من هذا المثل الذى ضربناه نجدها بارزة فى القرآن الكريم فى استدلاله على الوحدانية.

اتجه إلى أى زاوية من زوايا الكون ستجد ما فيها مرتبطا بما فى الزاوية الأخرى مهما ابتعدت المسافة أو تشابكت الطرق.

إن هذه الطرق على كثرتها وتشابكها لا تتصادم مع أن السائرين أو المسيرين ـ إذا أردنا الدقة ـ لا يعقلون ولا يفكرون، وعلى فرض أنهم فكروا فإن تفكيرهم لن يتعدى الدائرة المحيطة بهم.

خذ مثلا على هذا، النجوم، وإليك لمحة عنها.

"تبلغ مجرتنا، أى مجرة سكة التبانة من القطر ١٠٠٠٠٠ سنة ضوئية وتحتوى على ١٣٠ بليون نجم تقريبًا.

وهناك أكثر من بليون مجرة أخرى فى متناول مدى رؤية مناظيرنا:

وبينما يعتقد بأن أبعد الكوازارز[١] يوجد على مسافة ١٠ بليون سنة ضوئية منا، نجد أن المجرات تبدأ فى الاضمحلال عند حوالى خمسة بلايين سنة ضوئية وهذا ما يعتبر من الناحية النظرية حد ما نراه من الكون.

فإلى أى مدى يمكن أن يكون الكون ممتدا، وكم عدد ما يحتمل أن يوجد به مجرات؟

سؤالان لا توجد وسيلة لمعرفة الإجابة عليهما:

وإذا كان أبعد الكوازارز موجود حقيقة على بعد ١٠ بليون سنة ضوئية منا، فإن معنى ذلك بالضرورة أن الكون ممتد إلى ضعف ما يمكن رؤيته، وأنه يوجد فى هذا الكون أضعاف أضعاف ما تراه بالمنظار من مجرات"[٢].

هذا ما وصل إليه العلماء حتى الآن عن النجوم والكواكب التى فى الكون وقد تتقدم الوسائل العلمية فيكتشفون أكثر وأكثر.

---

(١) الكوازارز جمع كوازار تظهر كأجسام صغيرة بعض الشيء ولامعه ولمعان الكوزار يدل على منبع طاقة أقوى من أى شيء تعرفه (قصة الكون عجب وبهاء ص ١٦٧).

(٢) قصة الكون عجب وبهاء، ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

ومع كل هذا نرى هذه النجوم يسير كل واحد منها، وبينه وبين الآخر نوع من الارتباط، شعرنا به أم لم نشعر، فهو موجود.

بهذا النوع من الارتباط تكون الفائدة المرجوه:

ثم هذه النجوم فى سيرها لا تتصادم ولا تخرج عن الطريق الذى رسم لها.

ونرجع إلى القرآن الكريم فنستدل منه على ما قلنا.

فعن الطرق التى رسمت لكل نجم يقول سبحانه.

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ سورة يس آية/ ٤٠.

وفى سورة الملك بعد أن يبين سبحانه. أن الملك بيده وأنه على كل شيء قدير وأنه الخالق لما ذكره من الموت والحياة والسموات... إلخ.

بعد هذا يقول سبحانه.

﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [1]. سورة الملك آية/ ٣ ـ ٤.

وعدم التفاوت هذا إنما جاء من أن الخالق والآمر واحد فالكل يسير فى الاتجاه المحدد له.

ولذلك ـ فى سورة الأعراف ـ بعد أن يبين أنه سبحانه الخالق للسموات والأرض والمسخر للشمس والقمر والنجوم.

بعد هذا يقول سبحانه.

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ سورة الأعراف آية/ ٥٤.

(جـ) تنزيه العاقل عن العبث.

إن الإنسان ميزه الله بالعقل، وبالعقل يستطيع أن يبتعد عن العبث إنه بعقله يمتاز بالعلة الغائية عن إرادة فهو لا يعمل عملا إلا لغاية مادام يريد أن يبتعد عن العبث[2].

---

(١) التفاوت الاختلاف أى هل ترى فى خلقه من اختلاف (الفراء فى معانى القرآن) والتفاوت الاختلاف.وعدم التناسب، من الفوت، فإن كلا من المتفاوتين فات عنه بعض ما فى الآخر (البيضاوى فى تفسيره).
والفطر الشق (ج) فطور. وخسأ البصر خسئًا وخسوءًا: كل، وأعياء وحسر البعير والبصر حسارة: كل، فهو حسير(المعجم الوسيط).

(٢) العلة الغائية: ما يوجد الشيء لأجله: والغاية ما لأجله وجو الشيء (التعريفات للسيد).
والعلة الغائية علة بماهيتها لعلية العلة الفاعلية، معلولة لها فى وجودها، وهو المراد من قولهم أول الفكر آخر العمل (لباب الإشارات للرازى) ص٨٦ فقبل الإقدام على الفعل تكون غايته على الإقدام عليه وبعد الإنتهاء منه تتحقق الغاية. وقلنا عن إرادة لأن الغاية فى الحيوان غريزية.

وعلماؤنا أدركوا هذا، ولذلك جعلوا لكل علم مقدمة تشمل ماهية ذلك العلم، وبيان الحاجة إليه وموضوعه.

وجعلوا الشروع فى العلم متوقفًا على هذه المقدمة.

ويقولون فى سبب توقف الشروع فى العلم على بيان الحاجة:

إنه لو يعلم غاية العلم، والغرض منه لكان طلبه عبثًا.

فالشروع فى العلم فعل اختيارى، فلابد من أن يعلم أولا أن لذلك العلم فائدة ما، وإلا لامتنع الشروع مطلقًا فيه.

ولابد من أن تكون تلك الفائدة معتدا بها، نظرا إلى المشقة التى تكون للمشتغلين فى تحصيل ذلك، وإلا لكان شروعه، فيه وطلبه له مما يعد عبثا عرفا.."[1].

إذا العاقل - لكى لا يكون عابثا - عندما يقدم على فعل اختيارى لابد من أن يعلم الفائدة التى تترتب على ذلك الفعل وأن تكون متفقة مع التعب الذى يناله فى سبيلها.

بعد هذا نعود إلى موضوعنا فنجد أن الله سبحانه عندما ينفى الألوهية عن غيره وينهانا عن عبادة ذلك الغير يأتينا بسبب هذا الحكم.

وهو أن هذا الغير لا فائدة منه، ولا خير فيه بحال.

وإذا فعبادته عبث، والعاقل يجب أن يتنزه فعله عن العبث.

أما بيان أن هذه الآلهة لا فائدة منها ولا خير فيها فذلك لما يأتى.

إن هذه الآلهة لا تسمع و لا تبصر ومن هذه الناحية لام إبراهيم أباه على عبادتها.

ثم إن هذه الآلهة مسخرة مأمورة لا تستطيع أن تغيب. إذا قدر لها الظهور ولا الظهور إذا قدر لها أن تغيب.

فهى تسير على حسب ما أريد لها، لا على حسب ما تريد، وذلك كالكوكب والقمر والشمس - فى قصة إبراهيم عليه السلام.

اتخذوها آلهة ولو تدبروا لعلموا أن الكائن الذى لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، لا يستطيع أن يدفع عن غيره.

---

(١) القطب على الشمسية مع حاشية السيد.

ومن هنا عرف إبراهيم عليه السلام أن هذه الآلهة معيبة، غير صالحة للألوهية ووجه وجهه لله الذى خلقها.

ثم يأخذ القرآن الكريم بيد البشرية ليأمرها بأن ترجع إلى نفسها علها تعرف الحق من الباطل.

إن الإنسان ضعيف وهو فى حاجة إلى من يعينه، وله مطالب يرجوها ممن هو أقوى منه.

وهذه المطالب التى يرجوها: منها ما يتعلق بأصل النشأة، ومنها ما يتعلق بجعل الحياة شيئًا ممكنا، ومنها ما يتعلق برفع الغمة وتفريج الكرب، ومنها ما يتعلق بالإنسان ككائن له تكوين خاص ومطالب متعددة.

ثم ما يتعلق به من حيث المبدأ والمعاد.

الله سبحانه وتعالى يعرض لنا هذه المطالب والإنسان يعيشها.

هذه السماء وهذه الأرض خلقهما الله مرتبطين ببعضهما من السماء المطر ومن الأرض النبات، والإنسان ينتفع بهذا وذاك والأرض صالحة للإنسان ولاستقراره: فليست مغمورة بالماء وليست كلها صحراء وليست كلها جبالا.

وماؤها ليس ملحا كله، فلا يصلح للشرب. وليس عذبا كله فيفسد من طول المكث ليست الأرض هكذا.

بل فيها كل ما يحتاجه الإنسان: فيها الأنهار والوديان والجبال،وفيها الملح والعذب. ولا يطغى أحدهما على الآخر.

والإنسان لا يعيش حياة بلا أزمات بل كثيرًا ما تراه وقد تخلت عنه كل الأسباب، وهنا يتجه إلى من هو أقوى منه ليكشف ما به من ضر.

والإنسان كائن معقد؛ حياته من نوع خاص ليس هناك وجه للمقارنة بينه وبين حيوان آخر؛ فكل حيوان غير الإنسان يعيش فى بيئته التى وجد فيها.

وقد وهبه الله فى أصل خلقته ما يجعله لا يحتاج إلى غير هذه البيئة. فهناك الحيوانات البحرية والبرية وهذه منها الصحراوية والقطبية... إلخ.

وكل حيوان يعيش فى بيئته ويتناسل دون ما حاجة إلى بيئة أخرى.

أما الإنسان فهو ذلك الكائن الذى أعجز الباحثين فهمه. هو ذلك الكائن المعقد فى كل شيء فى مطالبه ورغباته وحاجاته.

وبذلك لا تراه يستطيع أن يعيش وحده، إنه يتعاون مع بنى جنسه أو يتحارب معهم .. سواء أكان هذا أم ذاك فإن النتيجة واحدة:

هو أنه لا يمكن أن يعيش إلا بالتعامل والتنقل من مكان إلى آخر.

إنه لابد أن يسافر، وكل مسافر لابد أن يصادف ظلمة: ظلمة الليل أو ظلمة البحر، أو ظلمة الغربة، حيث يفقد المرشد، والمعرفة بالأرض التى لم يرها من قبل إذا لم يكن هناك منقذ.

والآن ما هذا المنقذ الذى ينقذه من ضلاله وينير له طريقه.

إن هذا المنقذ قد يكون فى الأرض من جبال أو أنهار أو طريق أو سهل، إن هذه الأشياء لسان حالها يقول: نحن علامات على الطريق الذى تريد أيها المسافر أن تسلكه:

ولكن هذه تنفع حيث يكون المسافر فى البر،أما ما لو كان فى البحر والمياه لا جبال فيها ولا طرق ولا أنهار فإن المسافر يحتاج إلى هاد يتفق والبحر وعند ذلك يبحث المسافر عن هاد فى مكان آخر غير الأرض وليس بعد الأرض إلا السماء، فكان النجم هاديه.

والإنسان مهما شغلته الحياة فهو لن يغفل عن سؤال يلازمه طول عمره وهو من أين وإلى أين.

إنه يسأل عن مبدئه ومعاده.

فمن المبدئ والمعيد ومن الذى أحاط بكل شيء علمًا؟

الله سبحانه وتعالى يأتينا بهذه الصورة التى يعيشها الإنسان.

ليسأل فى كل مرة من الذى يفعل هذا :

والجواب لا أحد غير الله :

وإذا كان عندكم جواب غير هذا فعليكم البينة.

وحيث لا حجة لمشرك فإن النتيجة أنه.

لا إله إلا الله.

ثانيًا:الدفاع عن التوحيد ضد أنواع خاصة من الشرك ونضرب لذلك مثلا بما يأتى.

(أ) القائلون بإلهين : أحدهما للخير والآخر للشر[1] إن القرآن الكريم يقضى على هذا الشرك بالقضاء على أصله ، بإبعاد العقل الإنسانى نهائيا عن هذا الميدان ؛ إن الذين قالوا بشر وخير فى العالم ، حكموا عقولهم فى القول بأن هذا شر وهذا خير.

ولكن العقول ـ كما يخبرنا القرآن الكريم ـ قاصرة فى هذا الميدان : لأنها ليست على غاية الإدراك لعواقب الأمور.

وقصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام نص فى هذا فخرق السفينة شر بحسب النظر القريب ، خير بحسب العاقبة.

وقتل الغلام يثير علامة الاستفهام عند موسى ، ولكنه أمر لابد من تنفيذه عند العبد الصالح.

فلو أننا أخذنا ـ مثلا ـ حادثة السفينة ، ونقلناها إلى البيئة الفارسية لكانت شرًا فى أول الأمر خيرًا فى النهاية. والنظر فى ذلك للمجموع.

وحتى لو أخذنا الأمر من وجهة النظر الشخصى فإن مصدر الكل هو الله سبحانه "قل كل من من عند الله".

إلا أنه برغم ـ أن الله قادر على كل شيء ـ لا تسير الأمور بدون ضابط .

فما يصيب الإنسان إنما هو كنتيجة لعمله.

كل ما فى الأمر أنه قد يكون نتيجة عمله كفرد ، كالتلميذ الذى لم ينجح لأنه لم يذاكر.

---

(١) ارجع إلى ص١٠٣ وما بعدها من هذا البحث فى سبب القول بإلهين عند الفرس.

وقد يكون نتيجة لسلوك الجماعة.

يقول تعالى:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ سورة الأنفال آية/ ٢٥.

وهذا ليس ظلما لأن سلوك الجماعة إنما يتكون من سلوك الأفراد، فكان على صاحب السلوك السيء أن يعدل من سلوكه، وعلى صاحب السلوك الحسن أن يأخذ على يد المسيء، ولكن هذا وذاك لم يفعلا شيئا فاستحق الجميع العقاب.

كل ذلك لا يسير خبط عشواء، وإنما يسير على حسب سنن بينها الله سبحانه

يقول تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ سورة فاطر آية/ ٤٣.

(ب) الدفاع عن التوحيد ضد النصرانية المبدله[1].

يبين الله سبحانه أن المسيح عيسى بن مريم بريء مما نسب إليه فهو لم يقل إنه الله ولا ابن الله.

وإذا فإنهم لا سند لهم فى إسناد هذه العقيدة (التثليث أو تاليه عيسى) إلى النص.

قال القرآن الكريم هذا والأناجيل ومن قبلها التوراة ـ كما سيأتى ـ شاهد على ذلك... والقرآن لا يحتاج إلى شاهد يشهد له. ولكن نقول هذا لمن لم يؤمن بالقرآن الكريم.

وبعد أن يسلب القرآن من المسيحيين ما يمكن أن يحتجوا به وهو النص المنزل، بعد هذا يناقشهم فى عقيدتهم فيبين أن المسيح لا يمكن أن يكون إلها.

لأنه ـ كما رأوه ـ كان يأكل الطعام، فهو محتاج إلى هذا الطعام احتياج الحيوان.

وأيضا فإن ظهور المعجزات على يديه لا يدل على أنه هو المؤثر، لأنها من فعل الله سبحانه.

فمعجزة الطير وإبراء الأكمه والابرص وإحياء الموتى. كل ذلك ليس لعيسى فيها عمل، بل الله سبحانه هو الذى أجراها على يديه.

---

(١) ارجع إلى ص٥٨ وما بعدها من هذا البحث.

والذين ألهوا عيسى بسبب هذا كالذين آلهوا الشمس لما رأوا فيها من فوائد فسجدوا لها، فنبههم الله سبحانه إلى أن الحق هو السجود لخالق الشمس لا للشمس.

كذلك هنا فى عيسى: الحق هو عبادة خالقه لا عبادته. وأما المعجزات فإنها ليست بأعظم من غيرها؛ فإن إحياء العصا لموسى ـ وهم يعترفون بهذا ـ أدل على القدرة من إحياء الميت، فهل نقول كذلك بأن موسى إله.

ثم بعد ذلك. ما يقولون به من صلب عيسى هو باطل لأنه لم يقتل ولم يصلب والداعى للصلب كما يقولون غير موجود.

إنهم يرون أن عيسى تحمل الخطيئة عن بنى البشر، والقرآن فى أكثر من موضع يرد على هذا، فآدم أخطأ. وتاب، فتاب الله عليه، وعلى فرض أنه لم يتب ـ وهذا مجرد فرض لأن القرآن قد جاء بأنه تاب ـ فإن كل إنسان يتحمل نتيجة عمله، والأولاد لا يؤخذون بذنب الآباء.

ثم إن مجيء عيسى بدون أب لا يجعله إلها، وإلا لو كان عدم الأب يفيد هذا لكان آدم أولى بأن يكون إلها؛ لأنه بدون أب وبدون أم، وهم معترفون بهذا.

والحقيقة أن المسيحيين تركوا شريعتهم الإلهية وأخذوا بدلها وثنية كانت تعم البلاد فى ذلك الحين.

وبعد أن اعتنقوا الوثنيه باسم المسيحية أخذوا يفلسفون ما هم عليه ليجعلوه دينا، ويظنون أنهم بذلك يردون على المسلمين.. ولقد برهن التاريخ أن الحق لابد أن يظهر فى يوم من الأيام وسيتضح.

ونسمع الآن لعدد من المفكرين المسيحيين ومنهم من أسلم ومنهم من لم يسلم.

فمن الذين أسلموا محمد مجدى مرجان، وهو لازال حيًا حتى الآن بعد أن أسلم كتب كتبًا منها كتاب "الله واحد أم ثالوث"

فيكتب كيف تسرب الشرك والتثليث إلى المسيحية. يكتب عن التثليث عند الغربين والهنود، وأن المسيح عليه السلام جاء بالتوحيد الخالص وكان فى أول أمره متجهًا

إلى بنى إسرائيل، ولكن اليهود لم يؤمن به منهم سوى أفراد قلائل ونجاه الله من مؤامره صلبه.

وبعد المسيح "... اضطر المبشرون المسيحيون إلى تطعيم المسيحية ببعض الطقوس والعادات والشعائر التى وجدوها فى تلك الشعوب الوثنية. وأغلب الظن أن هؤلاء المبشرون كانوا حسن الثنية، فقد رأوا أن هذه هى الطريقة الوحيدة لتقريب الديانة المسيحية إلى أذهان الوثنيين... ولكن الواقع الأليم أن الذى حدث فعلاً هو عكس ما توقعه أولئك المبشرون البسطاء، فلقد تغلبت تلك الطقوس والشعائر الوثنية، وطمست جوهر الرسالة السماوية العظيمة التى أتى بها السيد المسيح عليه السلام"[١].

ويبين أن بولس مشى على هذه الطريقة وهى إدخال بعض العقائد الوثنية إلى الديانة المسيحية ويروى عنه قوله فى سفر كورنثوس الأول:

استعبدت نفسى للجميع لكى أربح الأكثرين، صرت لليهودي كيهودي لكى أربح اليهودى، وللناموسيين كالناموسين، ولغيرهم كأننى بغير ناموس... صرت لكل كل شىء لعلى أستخلص من كل حال قومًا[٢]...

وهكذا تسربت الوثنية إلى المسيحية.

وممن اهتم بهذه القضية مؤلفو كتاب "أسطورة تجسد الإله فى السيد المسيح".

وهم سبعة من أساتذة اللاهوت البريطانيين ـ ستة رجال وامرأة ـ صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٧ فى لندن.

والكتاب وهو يحتوى على عشرة فصول ـ يقوم على إبطال القول بتجسد الإله فى السيد المسيح.

وأنه بالنسبة للقول بتجسد الإله فى إنسان لم يعتقد ذلك بالنسبة للمسيح فقط، بل هناك من ادعى ذلك[٣].

---

(١) الله واحد أم ثالوث ص٨٤.

(٢) نفسه ص٨٥.

(٣) يراجع كتاب أسطورة تجسد الإله فى السيد المسيح فى كل مواضعه ومنها ادعاء سمعان ص١١٥ ـ ١٢٤ ـ ١٢٥.

وفى توطئة للكتاب. يذكر المحرر عما قامت به الكنيسة من تعديلات فيقول عن موقفها من الأناجيل: "وقبلت أن الأناجيل كتبت بأقلام عدة أشخاص فى حالات متنوعة، ولا يمكن أن يضفى على كلماتها عصمة الأمر الإلهى"[١].

ثم يقترب تمامًا مما ذكره القرآن الكريم فى المسيح عليه السلام، فيقول عن قناعة الكاتبين: "والمؤلفون مقتنعون أن تطورًا لاهوتيًا رئيسًا آخر مطلوب الآن فى الربع الأخير من القرن العشرين، وتبرز الحاجة لذلك من نمو حجم المعلومات عن الأصول المسيحية والتى تضم اعترافًا بأن المسيح كان كما هو مقدم فى الكتاب الخامس للعهد الجديد ٢١ : ٢"[٢] إنسانًا اختاره الله لدور خاص فى إطار الإرادة الإلهية، وأن الاعتقاد المتأخر بأنه الله المتجسد[٣] الشخص الثانى ـ الأقنوم الثانى ـ فى الثالوث المقدس الذى يحيا حياة بشرية ليس هو ـ أى الاعتقاد ـ إلا أسلوبًا أسطوريًا أو شاعريًا للتعبير عن أهميته بالنسبة لنا، وهذا الاعتراف مطلوب منا لمصلحة الحقيقة[٤].

هذا هو الذى استقر عليه مؤلفو الكتاب.

وكون المسيح إنسانًا نبيًا أرسله الله للهداية هو ما جاء به القرآن الكريم وما جاء بالكتاب المذكور هو تصديق لهذا وأن ما جاء القرآن سيصدقه المستقبل قال تعالى ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ سورة ص آية/ ٨٨.

تعقيب

التوحيد من الاكتشافات الحديثة.

ليس الدفاع عن التوحيد من علماء الدين فقط بل نرى المشتغلين بالعلوم الحديثة يصلون من خلال اكتشافاتهم العلمية إلى التوحيد؛ ويكاد يكون كلامهم تفسيرا لما جاء فى القرآن الكريم.

---

(١) ص٢٣.

(٢) جاء بالهامش كتبه القديس لوقا مؤلف الإنجيل الثالث وكلمة العهد الجديد تعنى الأناجيل وملحقاتها. من قاموس أكسفور للكنيسة.

(٣) معتقد التجسد يعنى حلول الإله فى جسم السيد المسيح (عن هامش الكتاب).

(٤) ص٢٣ ـ ٢٤.

فنرى أحدهم يقرر أن دراسة "الظواهر الكونية دراسة بعيدة عن التحيز وتتسم بالعدل والإنصاف قد أقنعتنى ـ كما يقول الباحث ـ بأن لهذا الكون إلها.

وأنه هو يسيطر عليه ويوجهه، أى أن هناك سيطرة مركزية هى سيطرة الله تعالى وقوته التى توجه هذا الكون.

وهناك من الأدلة ما يوضح أن بعض الظواهر التى تبدو متباعدة تقوم على أساس مشترك من التفسير، ويتضح ذلك من قوانين كولمب عن تجاذب الشحنات وتنافرها فقد اتضح لى أن هذه القوانين تشبه إلى حد كبير قوانين التجاذب والتنافر بين قطبين مغناطيسيين.

بل إنها تتشابه إلى حد كبير مع قوانين نيوتين عن الجاذبية العامة ففى كل حالة من الحالات الثلاث السابقة تتناسب القوة تناسبا طرديًا مع حاصل ضرب الشحنتين أو قوة القطبين المغناطيسيين أو الكتلتين. كما أنها تتناسب عكسيا مع مربع المسافة.

حقيقة هنالك بعض الفروق، فمن ذلك مثلا أنه بينما تسير الموجبات الكهرومغناطيسية بسرعة الضوء فإن التجاذب الأرضى ينتقل بسرعة لا نهائية.

ولكن هذه الفروق تشير إلى الاختلافات فى طبيعة الأشياء وتدفعنا نحو دراسة الموضوع بصورة أشمل.

وهناك ظواهر عديدة تدل على وحدة الغرض فى هذا الكون وتشير إلى أن نشأته والسيطرة عليه لابد أن تتم على يد إله واحد لا آلهة متعددة.

يحدثنا علماء الأحياء عن توافق مشابه فيما يتعلق بتركيب الكائنات الحية ووظائفها فالأجسام الطبيعية تؤدى وظائفها على أكمل وجه، وأتم صورة.

خذ مثلا الكرات الدموية الحمراء التى بجسم الإنسان تجد أن شكلها وحجمها يتناسبان إلى أقصى حد مع الوظائف التى خلقت من أجلها.

وينطبق هذا على سائر الأعضاء والأجزاء ودقائق الجسم.

فإذا ذهبنا إلى عالم الحشرات فقد يكفينا أن نفحص خلية النحل لكى تستولى علينا روعة الدقة والكمال والتشابه العجيب بين عيونها، وكل خلية من ملايين

الخلايا الموجودة فى سائر أنحاء العالم مصممة بصورة هندسية وبدقة رائعة وتناسب العمل الذى خلقت من أجله إلى أقصى الحدود.

وليست خلايا النحل إلا مثلا من آلاف الأمثلة التى نستطيع أن نضربها لبيان الروعة والإتقان والتوافق فى كل ما هو طبيعى. فإذا كان كل ذلك وغيره مما لا يحصى، لا يدل على وجود إله مدبر يسيطر على هذا الكون ويوجهه، فليت شعرى كيف أستطيع بعد ذلك أن أنتسب إلى دائرة العلماء والمشتغلين بالعلوم[1] ؟

وهنا تكون الآية يقول تعالى

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فصلت آية/ ٥٣ والآية الأخرى تبين أن العلماء شهدوا لله بالوحدانية، وشهادتهم قرنت بشهادة الله والملائكة.

يقول سبحانه :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٨.

(١) العلم يدعو للإيمان بحث "إيرل تشتر ريكس".